أفغانستان سويسرا آسيا ...

بقلم عبد الحميد الكاتب

« وهذا مقال آخر للأستاذ عبد الغنى المصرى ، يصف فيه جانباً آخر من مشاهداته فى أفغانستان . »

صدق من شبه أفغانستان بسويسرا ، والحق أنه لم يسرف ولم يتحيز حين سماها سويسرا آسيا . . فسويسرا التى يخف إليها الرياضى الذى يهوى الانزلاق على السفوح والثلوج ، ويسعى إليها العليل الذى يلتمس الهواء الجاف النقى ، ويأوى فيها إلى كوخ وادع على سفح التل أو شاطئ الغدير ذلك الشاعر الذى يريد أن يسرح على أجنحة الخيال إلى حيث يستلهم مفاتن الطبيعة ومغانى الدنيا — سويسرا هذه ليست أكثر جمالا ولا روعة ولا فتنة من أفغانستان ، حتى لكأن الطبيعة حين أغدقت سويسرا على قارة أوربا ، شاءت ألا تحرم آسيا فأغدقت عليها أفغانستان !

فأفغانستان هى سويسرا آسيا حقا : بجبالها ووديانها ، بغاباتها وبساتينها ؛ بأنهارها وبحيراتها ، بسفوحها وثلوجها ، بخيراتها وفاكهتها . . . وكل ما هناك من فرق بين البلدين ، هو فرق الصنعة لا فرق الطبيعة ، وفرق التجميل لا فرق الجمال ؛ ففى سويسرا أضافوا إلى الجمال الطبيعى

جمالا صناعيا ، يبدو فى فنادقها ، وبيوتها ، ومشاربها ، وملاهيها ، ووسائل المواصلات فيها . أما أفغانستان فقد ألقت بها الطبيعة فى مكان قصى لا يؤمه الناس، فظلت كما فطرها الله ! دون أن تمتد إليها يد الصنعة إلا قليلا . ولو امتدت إليها فأنشأت فيها الفنادق والملاهى، ويسرت سبل الوصول إليها ، لرأيت كثيراً ممن يخفون اليوم إلى سويسرا يولون وجوههم شطر أفغانستان !

وأروع ما فى أفغانستان هى هذه الجبال التى تحيط بالمرء من كل جانب . فأينما كان وحيثما ذهب رأى نفسه وسط حلقة من الجبال تحيط به إحاطة السوار بالمعصم كما يقولون . بل حتى عندما تنفرج الجبال بعضها عن بعض وينبسط فيما بينها واد سهل فسيح – كذلك الوادى الذى قامت فيه مدينة كابل عاصمة أفغانستان – تظل هناك سلسلة من الجبال الشاهقة تحيط بالمدينة وتقوم من حولها كالسور الشاهق المنيع . الذى لا منفذ منه إلا بضعة طرق ضيقة تشققت بين الجبال ، فصارت مسالك ضرب فيها الناس على أقدامهم وفى قوافلهم قديماً ، ثم جاءت السيارات والأتوبيسات فصارت تشق بالناس هذه المسالك الوعرة !

ولا تكتفى الجبال بأن تحيط بالمدينة من كل جانب . . . بل فى قلب المدينة ذاته يقوم جبل شاهق يفصل شمالها عن جنوبها ، مثلما يفصل النيل شرق القاهرة عن غربها . فإذا شئت أن تذهب

مفاتن الطبيعة في أفغانستان

من حى إلى حى. ولم تكن رياضيا يهوى ارتقاء الجبال وهبوط السفوح، فعليك أن تدور حول الجبل الأشم الشامخ الذى يتوسط المدينة

وجبال أفغانستان ليست جبالا عارية قاحلة ، ولا داكنة كالحة — بل إن الأعشاب التى تنمو حتى تبلغ مبلغ الأشجار تغطيها وتكسوها . فتضفى عليها لوناً أخضر ، يحمر أحياناً ويصفر أحياناً عند انتهاء الخريف وعند مقدم الربيع . . ثم إن صخور الجبال ذات ألوان زاهية شتى ، حتى ليخيل إليك أن يداً قد مرت عليها بأصباغ حمراء وخضراء وزرقاء وسوداء وصفراء يتجاوب بعضها مع بعض تجاوب الألوان فى لوحة الفنان . . بل أحسب لو أن رساماً رسم جبال أفغانستان كما هى ، بألوانها المتباينة المتجاوبة ، الصافية القاتمة، لظن الناس أنه أسرف وغالى وأضفى عليها من عنده ألواناً وأصباغاً . . فما يصدق من لم ير هذه الجبال «ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود» .

وقد أسرفت فى ذكر الجبال ، حتى لأخشى أن تظن أن أفغانستان ليست إلا جبالا . . كلا . . فعلماء الجغرافيا يقولون إنه حيثما توجد الجبال توجد الوديان ، وحيثما توجد الوديان تجر الأنهار . . وحيثما تجر الأنهار وتتدفق المياه ، تحى الأرض الميتة ؛ فتخرج الشجر والثمر ؛ وتأتى بالنبت والحب ! وتخضر بالعشب والمرعى .

وهكذا أفغانستان . . وما أحسب إقليماً فى العالم فيه ما فى أفغانستان من البساتين الناضرة بالشجر ، الحافلة بالثمر ، الكريمة بالفاكهة . . وإن شئت أن تعرف فمر قليلا فى أسواق كابل ، تر أكثر الدكاكين لا تبيع إلا الفاكهة ، وفى كل منها أكوام من العنب والتفاح والكمثرى والخوخ والرمان والبطيخ والشمام . . ثم عرج على دكان منها فاشتر شيئاً من الفاكهة . ستقول فى أول الأمر : ما أرخصها ! . . فرطل العنب أو رطل التفاح لا يساوى أكثر من قرش واحد ، والبطيخة أو الشمامة الوافرة تشتريها بخمسة قروش أو ستة . . . ثم لا تلبث أن تقول ما أحلى هذه الفاكهة وما أشهاها ! فلن تذوق أحلى من عنب أفغانستان ، ولن تأكل أشهى من بطيخها ؛ والشمام الذى قلما تعثر منه فى مصر على شمامة حلوة ، لا تجد منه فى أفغانستان واحدة ماسخة ! .

وستسمع بائع الفاكهة يقول لك إن فى أفغانستان سبعين نوعاً من العنب . . وأظنه لا يغالى ؛ فإنى أرى الفقراء هنا يأكلون العنب مع العيش مثلما يأكل فقراؤنا الملح أو المش مع العيش . . وستجد أمام بائع الفاكهة ألواناً وأشكالا من العنب ، فمنه الأسود الداكن ، ومنه الأخضر الزاهى ، ومنه ما يكبر حتى يبلغ حجم الليمونة ؛ ومنه ما يصغر حتى يشبه حبات الذرة ، وكله يتساوى بعد هذا فى مذاقه الحلو اللذيذ ؛ أما موسمه فطويل يمتد ثمانية شهور فى السنة ؛

صخور الجبال في أفغانستان ذات ألوان زاهية شتى

ولا تحرم منه حتى عندما ينتهى فصل الدفء ويطبق على أفغانستان شتاؤها القارس الزمهرير !

ولم تغدق الطبيعة على أفغانستان فاكهتها فحسب ، بل أغدقت عليها كثيراً من خيراتها ؛ فترى الباعة فى الطرق مصطفين على الإفريز . يبيعون اللوز والجوز والبندق والفستق والصنوبر ، مثلما يبيعون فى مصر اللب والترمس . . . بل ترى الأطفال فى الطرق يلعبون البلى ، ولكن بليهم هو ثمار الجوز.. ! وأينما ذهبت فى أرجاء أفغانستان ؛ وجدت الأشجار الباسقة التى تحمل هذه الثمار ، نامية على جانب الطرق . وفى حدائق البيوت . وفى حقول الزارعين . . . فهذه الشجرة التى تحمل ثمرة كثمرة البرتقال ، هى شجرة « عين الجمل » . هذه الثمرة الجميلة التى أحاطتها الطبيعة بغلافين : غلاف أخضر كقشرة البرتقال ، ينشق عند النضج فتخرج من جوفه هذه الثمرة التى نعرفها بغلافها الصلب .

وهذه أشجار التوت تظللك أينما ذهبت . وتجود على الناس بثمرها الجميل ، الذى طالما تغنى الشعراء بلونه القرمزى ، وطالما ذكروه كلما ذكروا شفاه الحسان وفتنة لونها ومذاق ريقها ولست أدرى ماذا يفعل التوت هنا بالشفاه . فما رأيتها ولا رآها أحد ممن وفد إلى هذه البلاد . وكل ما أعرفه عن توت أفغانستان أن الناس يأكلونه إبان موسمه ، ثم يجففونه أو يخلطونه بالجوز ، ويأكلونه طوال الشتاء .

ولعل أروع ما فى طبيعة أفغانستان هذا التفاوت العجيب بين فصول السنة . . . فكل فصل فيها له مميزاته وخصائصه ؛ فصيفها لاهب الحرارة ، تشتد فى بعض المناطق مثلما تشتد فى صعيد مصر ، فيفر الناس من المدن إلى الريف ، يلتمسون فى رياضه وظلاله مأوى من القيظ والهجير . . وشتاؤها قارس البرودة ، لا ، فإن هذه الكلمة لا تكفى لوصف برودة الشتاء فى أفغانستان ، حيث تمطر السماء ثلجاً يغطى الأرض بطبقة ارتفاعها بضع أقدام ؛ وحيث تهبط درجة الحرارة إلى العشرين تحت الصفر فيقر الناس فى بيوتهم لا يكادون يغادرونها ، وتعطل المدارس ، وتسد الطرق ، وينفق الناس جزءاً كبيراً من مالهم فى شراء الخشب والفحم يتدفأون به ، فيبلغ ما ينفقه الرجل الثرى فى تدفئة بيته ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه فى السنة ، ففى كل غرفة مدفأة يسمونها « البخارى » الذى تراه فى كل مكان ، فى مكاتب الحكومة ، وفى دكاكين السوق ، وفى مساجد الصلاة . . أو تشق تحت أرض الغرف مجار توقد فيها النيران وتسرى فيها الحرارة .

ويتدثر الناس فى الشتاء بملابس ثقيلة من ذلك الصوف النقى الذى ينسج فى أفغانستان ، ويلتفون فى عباءات مثل اللحاف تماماً ، فهى محشوة بالقطن ... ولكن هذا لا يكفى فى بعض المناطق الشديدة الارتفاع ، فيتدثرون بمعاطف وصدريات من فراء الأغنام ذات الشعر الطويل ، ويلبسونها بحيث يكون شعرها إلى الداخل وجلدها إلى الخارج .

ولكن لا يرد زمهرير الشتاء إلا هذه النيران التى يصطليها الناس من مغرب الشمس إلى مشرقها؛ ولهذا يقول الأفغانيون فى أمثالهم « نار الشتاء خير من الله ورسوله . وأرجو ألا تسرع فتسىء الظن بدين الأفغان . فكلمة « خير » هنا اسم وليست أفعل تفضيل ، يعنى : « نعمة من الله ورسوله ! »

ولعل هذا الشتاء القارس هو الذى يجعل كثيراً من الأفغان يدخلون المساجد ويؤدون الصلاة وهم منتعلون أحذيتهم التى يسيرون بها فى طرق فيها من الوحل والروث أكثر مما فى طرق القاهرة ؛ ولست أدرى حكم الدين فى هذا ، وإن كان أحد الأفغانيين قد قال لى : إن أرضنا طاهرة ، لأنها طاهرة من الاستعمار الأجنبى . . . وأظنه على حق فى هذا التفسير . . . هذا إلى أننى سمعت أن بعض فقهاء الإسلام يرون أن الصلاة لا تحل فى الأرض التى يحكمها غير المسلم .

وهذا الشتاء على برودته القارسة هو أروع فصول السنة . . . وهو الذى يجعل من أفغانستان سويسرا أخرى . . . فما يبدأ الشتاء فى منتصف ديسمبر حتى يهطل الثلج من السماء . . مثلما يهطل المطر تماماً . . ويظل يهطل أياماً وأسابيع متتالية حتى يغطى الأرض ، والشوارع ، وأسطح البيوت ، وأشجار الطريق . . . بل يغطى رجال البوليس الواقفين فى الطريق لتنظيم المرور . . كل هذا يغطى بالثلج الإبيض الناصع الجميل . . ومع هذا فإن الشمس تظل

مشرقة أكثر أيام الشتاء . . وتظل سافرة ساطعة لا يكاد يحجبها غيم أو سحاب . . فإذا سرت سرت فوق طبقة عالية من الجليد . وتحت شمس ساطعة ! .

وتشرق هذه الشمس السافرة على الجليد الأبيض ، فينعكس منه ضوء لامع يخطف البصر ، ولا يستطيع المرء أن ينظر إلى الأرض إلا من خلال نظارة سوداء تقى العين من ذلك الضوء المتألق الذى ينبعث من طبقات الجليد .

ولكن الأفغان لا يغطون أعينهم بالنظارات . . . وإنما يكتحلون . ولا سيما أهل الريف منهم . . . ذلك أن اللون الأسود يمتص الضوء الشديد ، ويقى العين من تأثيره . . فترى الرجل الوقور ذا اللحية المرسلة وقد كحل عينيه . . أو الصبى الصغير بعينين كحيلتين تتألقان فى وجه مشرب بالحمرة . . . وأما ما عدا ذلك من العيون فلم أرها !

وفى الشتاء تغطى الجبال من أعلاها إلى سفوحها بالثلوج ، فيجد فيها أولئك الأوربيون والأمريكيون الذين يعيشون هنا — وفى أفغانستان بضع مئات منهم أكثرهم من الأمريكيين الذين يعملون مدرسين ومهندسين وأطباء — ملعباً جميلا للانزلاق . . ففى يوم الجمعة والأحد ترى أسراباً من شبابهم وفتياتهم على سفوح الجبل الذى يتوسط كابل ، يتقاذفون بكرات الثلج ، ويتسلقون الجبل أو يتدحرجون عليه ...

أما أكثر فصول السنة متعة وأوفرها خيراً ، فهو فصل الخريف ، الذى يبدأ من سبتمبر وينتهى فى نوفمبر ، وفيه يعتدل الجو ويصفو ، وتكثر الفاكهة وتحلو ؛ ولهذا ينصحك الأفغان أن تزور بلادهم فى هذا الموسم الجميل .

وكما أن الفرق بين صيف أفغانستان وشتائها كبير ، فكذلك الفارق بين ليلها ونهارها . . . فنهارها دافىء ، وقلما تحتجب فيه الشمس وراء السحاب ، ولكن ما إن تتوارى الشمس وراء الجبال حتى يتحول هذا الدفء اللطيف إلى برد شديد . . . يظل يزداد شدة كلما تقدم الليل . حتى إذا أقبل الصباح رأيت الماء متجمداً ، ورأيت قنوات الماء التى تشق أكثر شوارع المدينة مغطاة بطبقة من الثلج تشبه ألواح الزجاج . ثم تشرق عليه الشمس فتذيبها ، ويستمتع الناس مرة أخرى طوال النهار . . .

بل قد تجد فرقاً كبيراً فى مكان واحد ووقت واحد . فإذا سرت فى الظل أحسست بالبرد ، فإن انحرفت خطوة واحدة بعيداً عن الظل أحسست بالحر . . . حتى قيل إن الفرق بين الصيف والشتاء فى أفغانستان هو خطوة واحدة !

وقد تجتمع الفصول الأربعة معاً . . وذلك على سفوح الجبال الشاهقة . . فى أدناها الصيف الحار الذى يتصبب منه الإنسان عرقاً . . فإذا ارتقيت على السفح قليلا هبطت الحرارة ورق الجو ،

فكان الربيع برياضه وزهوره . . فإذا نظرت إلى قمة الجبل رأيت الشتاء فى هذه الثلوج التى تكللها طوال العام . . وهكذا يجتمع الصيف والشتاء والربيع معاً ! .

وأحسب أن هذا التفاوت الكبير فى أجواء أفغانستان . قد ولد فى أجسام أهلها قوة ومنعة وصلابة . يقاومون بها برد الشتاء وحر الصيف . . وأن هذه القوة الطبيعية فى أجسامهم . إلى جانب ما فى بلادهم من الخيرات الموفرة . هى التى تجعل الأفغانيين يعمرون طويلا . . وقد كان أول ما استرعى نظرى عند ما دخلت أرض أفغانستان أننى رأيت أغلب الناس شيوخاً معمرين ، تتدلى على صدورهم لحى شائبة بيضاء ! ومع هذا يسيرون مسرعين منتصبين كالشبان الفتيان ! وما أظن أن فى العالم بلداً تكثر فيه نسبة الشيوخ إلى نسبة الشبان مثل كثرتها فى أفغانستان ! وأظن أيضاً أن بلاد البلقان قد ادعت لنفسها فضلا هو من حق أفغانستان . . فهم يزعمون أن أهل البلقان يعمرون كثيراً . . ويقولون إن رجلا رأى فى إحدى بلاد البلقان شيخاً معمراً يبكى ، فسأله عن سبب بكائه ، فقال له إن أباه ضربه لأنه شتم جده . . ! وأزعم أن مثل هذا قد يحدث فى أفغانستان لا فى البلقان ، فمتوسط عمر الأفغانى خمس وسبعون سنة ! ولهذا لم أعجب حين رأيتهم يبكون رجلا مات فى السبعين مثلما نبكى فى مصر من يموت فى ميعة الشباب ! .

ولعل من أدلة طول العمر فى أفغانستان أنها هى الدولة الوحيدة التى اجتمع فيها الأب والابن فى مجلس الوزراء ! فقد ترى فى البلاد الأخرى أبا وابناً عضوين فى البرلمان ! أما فى أفغانستان فقد صار الأب وزيراً للعدل ! والابن وزيراً للمالية ! فى وزارتها الحالية .

وبعد ! فأرجو أن أكون قد أبرزت بعض نواحى الجمال فى أفغانستان ! فى سويسرا آسيا ! وأحسب أن المرء إذا كان قلبه سليم النبض . ودمه عادى الضغط فلا يتأثر من ارتفاع كابل التى تعلو على سطح البحر زهاء ألف وثمانمائة متر ! والتى تعد أعلى عاصمة فى العالم . . وإذا كان لا يعنيه كثيراً أن يحرم من تلك الملاهى والليالى التى ألفناها ... فإنه سيرى فى أفغانستان بلداً من أجمل بلاد العالم ! بل بلداً تمر مشاهده الرائعة أمام عينيه كما تمر الأحلام والرؤى الجميلة فى خيال الشاعر السارح . .

ولعلك بعد هذا تريد أن تزور أفغانستان . . ولكن مهلا . . فبينك وبينها خرط القتاد !

وخرط القتاد هنا هو ممر خيبر !

وما أدراك ما ممر خيبر ؟ ! . .إن لهذا قصة أخرى أرجو أن تقرأها قريباً ! .